الفصل التاسع

مملكة غرناطة

- محمد بن يوسف بن نصر.
- محمد بن محمد بن يوسف بن نصر.
- تنازع السلطة.
- بداية التدهور.
- السقوط الأخير.

obeikandl.com

obeikandl.com

محمد بن يوسف بن نصر

مملكة غرناطة، أو مملكة بني الأحمر، أو مملكة بني نصر، مملكة نشأت في غرناطة بعد سقوط مدن الأندلس الأخرى وحصونها وقلاعها على يد مملكة قشتالة ومملكة أراجون. وشاء الله سبحانه وتعالى أن تستمر هذه المملكة المسلمة نحو قرنين ونصف بعد السقوط الكبير للأندلس، وقد نعزي ذلك لعوامل مساعدة منها قربها من المغرب، مما يساعد في سرعة الإنجاد عند الضرورة، وكذا قيامها زمن شيخوخة دولة الموحدين وقيام دولة المرينيين، وهذا يعني التعامل مع دولة فتية متحمسة في بادىء أمرها وعنفوان شبابها، إضافة إلى الشقاق والحروب التي كانت قائمة بين ملوك القشتاليين وملوك الأراجون في تلك الحقبة من الزمن، مما حدا بهم إلى الانشغال بأنفسهم عن تحقيق غايتهم في حِقَب من هذا العمر المديد رغم المناوشات والحروب التي تظهر ثم تخبو بين الفينة والأخرى، وأيضاً توافد العديد من الأندلسيين إليها بعد فرارهم من مدنهم وقُراهم إثر السُّقوط.

تحدثنا في مواقع كثيرة من هذا الكتاب عن محمد بن يوسف بن نصر وصراعه مع ابن هود، ودخوله إشبيلية وخروجه منها، ولجوئه المشين إلى النصارى لمساعدته في حروبه مع ابن هود وغيره كلما ضاقت به السبل.

وبعد وفاة ابن هود عام ٦٣٥ هـ رأى أنَّ الوقت قد حان لبلوغ مرامه والاستيلاء على ما تحت يد خصمه اللَّدود الكاره له، وكان الوالي على غرناطة من قبل ابن هود قبل وفاته عتبة بن يحيى المغيلي، وكان يأمر بسبِّ ابن الأحمر على المنابر، فثار عليه أهل غرناطة ودخلوا عليه القصر وقتلوه، واستدعوا ابن الأحمر الذي سارع بالمسير إلى غرناطة ودخلها وقت صلاة المغرب بثياب رثة، وتأخر الإمام عن دخول المسجد فسارع المأمومون بتقديم ابن الأحمر فصلَّى بهم على هيئة سفره بفاتحة الكتاب و﴿**إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ**﴾ و﴿**قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ**﴾ وهو متقلِّد سيفه، ثم خرج إلى قصر باديس ودخله والشموع بين يديه.

وبعد أن اطمأن على ما بيده، سار إلى ابن الرميمي الذي قتل ابن هود فحاصره في ألمرية وانتزعها منه، وكان عونه في ذلك أحد زعماء المولّدين واسمه ابن أشقيلولة، وأصبح صهراً لمحمد بن يوسف فيما بعد حيث تزوج أبو الحسن الأشقيلولي أخت محمد ابن يوسف، كما تزوج ابنه أبو عبدالله الأشقيلولي من ابنة محمد بن يوسف، وقد انضم تحت لوائه العديد من المدن والقلاع فأصبح قوة لا يستهان بها، ووجد نفسه مضطراً إلى مجابهة النصارى بعدما كان يهادنهم وذلك لانتفاضتهم عليه خشية اتساع نفوذه. ودارت معارك غير حاسمة بين الطرفين، لكن ملك قشتالة عاود السير إلى محاصرة غرناطة وجيان، فلم يجد ابن الأحمر خياراً غير الموافقة على الانضواء تحت لوائه وانقاد له بالطاعة وأصبح يؤدّي جزية سنوية، ويساعده على أعدائه، كما أجبره على حضور المجلس القشتالي النيابي، وهذه هي المطالب الدائمة للقشتاليين أثناء حروبهم مع المسلمين.

عزم القشتاليون على الاستيلاء على إشبيلية فكان لزاماً على ابن الأحمر مساعدته -كما ذكرنا في غير موضع – فأمده بخمسمائة فارس، فكان هذا الموقف الشنيء عاراً على محمد بن يوسف الذي ساعد في حصار وسقوط دُرَّة من الدرر الثمينة التي فقدها المسلمون، وتذكر بعض المصادر أنَّ موقفه هذا كان بدافع الانتقام والحقد بعد أن أخرجه أهلها منها أثناء حروبه مع ابن هود.

كان موقفاً لئيماً دنيئاً يدلُّ على ما وصلت إليه الأندلس في عصر الطوائف والدويلات من مآسٍ ستظل وصمة عارٍ في جبين ذلك العصر الأندلسي المظلم.

ويبدو أنه شعر بالذنب، أو أنه ضاق ذرعاً بالأغلال التي قيده بها النصارى، أو ربما بدافع الطمع بعد أن شعر بشيء من القوة والقدرة لا سيما أنه قد انضم تحت لوائه عدد من المتطوعة، كما أنه وجد استجابة من يعقوب بن عبدالحق المريني سلطان المغرب الذي أمدَّه بثلاثة آلاف مقاتل، واستطاع استرداد بعض القلاع والمدن الصغيرة، فكانت بارقة أمل لدى محمد بن يوسف بن نصر، لكن هذا الأمل لم يدم طويلاً حيث خشي ملك قشتالة الفونسو العاشر نهوض دولة مسلمة جديدة قادرة على مقارعته، فعقد العزم على المنازلة فاستولى على بعض الحصون فتوجس محمد بن يوسف بن نصر خيفة فعاد

يستصرخ المرينيين للمساعدة، لكنه لم يجد استجابة سريعة لانشغال المرينيين بحروبهم الداخلية، فاضطر أن ينزل على طاعة القشتاليين ويسلمهم بعض الحصون والقلاع وذلك عام ٦٦٥ هـ.

واستمر بعد ذلك في دعة وسكون ما عدا بعض المناوشات مع الثائرين عليه، وبعد ذلك توفي عام ٦٧١ هـ بعد أن سقط من جواده وهو عائد من إحدى غزواته أثناء محاربته بعض الثائرين عليه، وكان عمره وقت وفاته ثمانين عاماً.

obeikandl.com

obeikandl.com

محمد بن محمد بن يوسف بن نصر

وتولى الحكم بعده ابنه محمد بن محمد بن يوسف الملقب بالفقيه، وكان عالماً فقيهاً، تقياً، ورعاً في نفسه، أما في إدارته ومحاربته للقشتاليين فرجل آخر، وفي الجانب الآخر نجد أنَّ ملك قشتالة الفونسو العاشر، عالم بالفَلَكِ محب للعلوم استقدم عدداً من علماء الأندلس بعد سقوطها، وقد أعاد الكرَّة لمحاربة بني الأحمر وعاث وأفسد، فالتجأ محمد ابن محمد بن يوسف الفقيه إلى زعيم المرينيين بفاس أبي يعقوب بن عبدالحق المريني الملقب بالمنصور طالباً النجدة، وكانت هناك حروب بين المرينيين وبين رجل يقال له يغمر أسنُ أحد زعماء المغرب، فطلب منه الصلح ليتفرغ لقتال العدو الداهم للأندلس، فوافق واجتمعت الكلمة. وسار الجيش من فاس بقيادة أبي يوسف يعقوب بن عبدالحق وأخذ في منازلة النصارى عند بعض الحصون وذلك في عام ٦٧٥ هـ.

وسار الفقيه ابن الأحمر لاستقباله غير أنه عاد والريبة تخالجه، لتظهر لنا مأساة أخرى من مآسي الأندلس المضحكة المبكية، فقد كان هناك جفوة بين الفقيه وبين صهره ابن أشقيلولة، وكان ابن أشقيلولة قد وفَدَ على السلطان المريني عند عبور البحر فأدناه، فكان ذلك نذير خوف لدى الفقيه، وقد حاول السلطان الإصلاح بينهما دون جدوى.

من هنا يتضح كيف تسير الأمور في الأندلس، فحاكم يستصرخ السلطان لرد عدو متربص يريد البطش به، تعتريه الريبة بعد مقابلة السلطان لحليفه السابق وصهره لماحكات دنيئة، تنطلق وتعود لتصب في مصالح شخصية تحت مظلة حماية الإسلام والمسلمين.

بعد أن علم ملك قشتاله بقدوم المرينيين أرسل جيشاً ضخماً يقدر بنحو تسعين ألف مقاتل بقيادة صهره «ذنوبه»، وتقابل الجيشان فهُزم جيش القشتاليين وقتل قائده «ذنوبه»، كما بلغ عدد قتلى القشتاليين نحو ثمانية عشر ألف بينما عدد قتلى المسلمين بالعشرات فقط، وجمعت الرؤوس وأُذِّنَ عليها لصلاة العصر، ويبدو أنَّ هناك مبالغة في عدد قتلى النصارى، ومبالغة في تخفيض عدد قتلى المسلمين والله أعلم، لكنَّها معركة كان المسلمون في حاجة لها من الناحية المعنوية حيث لم تقم لهم قائمة بعد معركة «العقاب» الشهيرة.

وهناك مأساة أخرى تدل على ما في عقول هؤلاء الحكام من بُعد عن المروءة والشهامة، فقد قام أبو يوسف يعقوب المنصور المريني بإرسال رأس «ذنونه» إلى ابن الأحمر، فقام ابن الأحمر –كما تقول بعض الروايات– بتخضيب الرأس بالطيب وإرساله إلى ملك قشتالة تقرباً إليه، وليجعلها دالَّة له عندما يحتاجه لمحاربة مناوئين محتملين في المستقبل لا سيما أنه يحمل الريبة ممن ساعدوه على ردِّ عدوه نظراً لإكرامهم صهره المنافس.

وتوفي ابن أشقيلولة صاحب مالقة، وعبر ابنه محمد إلى السلطان وبقي هناك، فأرسل السلطان والياً من قبله مما زاد في ريبة ابن الأحمر من مطامع المرينيين.

ويبدو أنَّ ابن الأحمر لم يكن يرى في المرينيين حليفاً مأموناً رغم صدقهم في الحفاظ على الإسلام بالأندلس وعدم منازعتهم لابن الأحمر سلطانه على غرناطة، ولهذا فقد بدأ في مأساة جديدة، وخزي آخر حيث طلب من والي مالقه التنازل عنها مقابل بعض المدن الأخرى والحصون فوافق، ثم اتصل بالقشتاليين للتحالف معهم لمنع أبي يوسف يعقوب المنصور المريني من عبور البحر لمقاتلة القشتاليين، وهذه من شواهد مآسي الأندلس المؤلمة.

سار جيش المرينيين وعبر البحر بقيادة ابنه أبي يعقوب، فانتصر الجيش المريني ثم عاد أدراجه، وقد نازعت قائد الجيش بعض الهواجس في السير إلى غرناطة لمحاربة ابن الأحمر نظراً لخذلانه لهم، فردعه والده السلطان.

ثم تعاون ابن أشقيلولة مع القشتاليين لمحاربة ابن الأحمر في غرناطة وانتزاعها منه، فقدم الجيش إلى غرناطة واستطاع ابن الأحمر هزيمته، لكنه بدأ يخشى تلك القوى الكثيرة المحيطة بسلطانه، ويبدو أنَّ يعقوب المنصور المريني قد أدرك ذلك فأرسل رسالة تفاهم إلى ابن الأحمر لتُهدِّئ عنه بعض روعه.

واشتغل المرينيون بحروبهم الداخلية، بينما جرى انقلاب داخلي في مملكة قشتالة حيث قام الإبن على أبيه الفونسو العاشر وكان صراعاً انتهى بهزيمة الأب، وكان السلطان المريني يميل إلى الأب بينما كان ابن الأحمر من أنصار الإبن.

وفي عام ٦٨٤ هـ اجتاز يعقوب المنصور المريني البحر، وحارب القشتاليين فانهزموا أمام قوة جيشه، وطلبوا الصلح، فاشترط عليهم عدم الدس بين المسلمين، وعدم الاعتداء عليهم وأن ترفع الضريبة عن المسلمين بدار الحرب فوافق.

وتوفي يعقوب المنصور المريني وكان بحق يبحث عن نصرة الإسلام مترفعاً عن الحروب الداخلية، صادقاً في مراميه، وتولى الأمر بعده ابنه يوسف أبو يعقوب واستمر على نهج أبيه وزادت المودة والعلاقة بينه وبين ابن الأحمر.

وفي عام ٦٩٠ هـ نقض ملك قشتالة عهده وحاصر ديار المسلمين، فأرسل له يوسف ابن أبي يعقوب المريني جيشاً بحرياً هُزِمَ فيه المسلمون، ولم يترك ابن الأحمر خذلانه للمسلمين، فقد اتصل به ملك قشتالة وسعى في إقناعه بمساعدته في الاستيلاء على بعض المدن والحصون التي بيد المرينيين فوافق بشرط تنازل القشتاليين عن مدينة طريف فوافق ملك قشتالة، فسار الجيش القشتالي وساعده ابن الأحمر بالمؤن والجنود، فانتصر ملك قشتالة لكنه نكث عهده ولم يسلمه طريف.

هذه مأساة أخرى من مآسي الأندلس بطلها ابن الأحمر الذي لم يصدق النية مع ربه أو مع أخيه وحليفه يوسف أبي يعقوب المريني، فسار في ركب المكائد والخيانة.

وعاد هذا اللئيم يطلب ود المرينيين مرة أخرى بعد أن أذاقهم مُرَّ الخيانة وذاقها هو من ملك قشتالة، فكان يوسف أبو يعقوب المريني نبيل الأخلاق، كبير القلب، مترفعاً عن ترهات الغدر، فقبل عذره، وأكرم وفادة رسله، وعندما بلغه ذلك سُرَّ سروراً شديداً، فرحل بنفسه إلى السلطان شاكراً له نبل أخلاقه، وعدم مؤاخذته على دنيته.

وظلت العلاقة متينة بين محمد بن محمد بن الأحمر الملقب بالفقيه وبين سلطان المرينيين حتى توفي في عام ٧٠١ هـ.

قصر الحمراء: أحد قصور حكام مملكة غرناطة
التي ظلت تمثل موقع قدم للمسلمين في الأندلس مدة مئتين وخمسين عاماً
بعد زوال الوجود الإسلامي في باقي مدن الأندلس الأخرى.

obeikandl.com

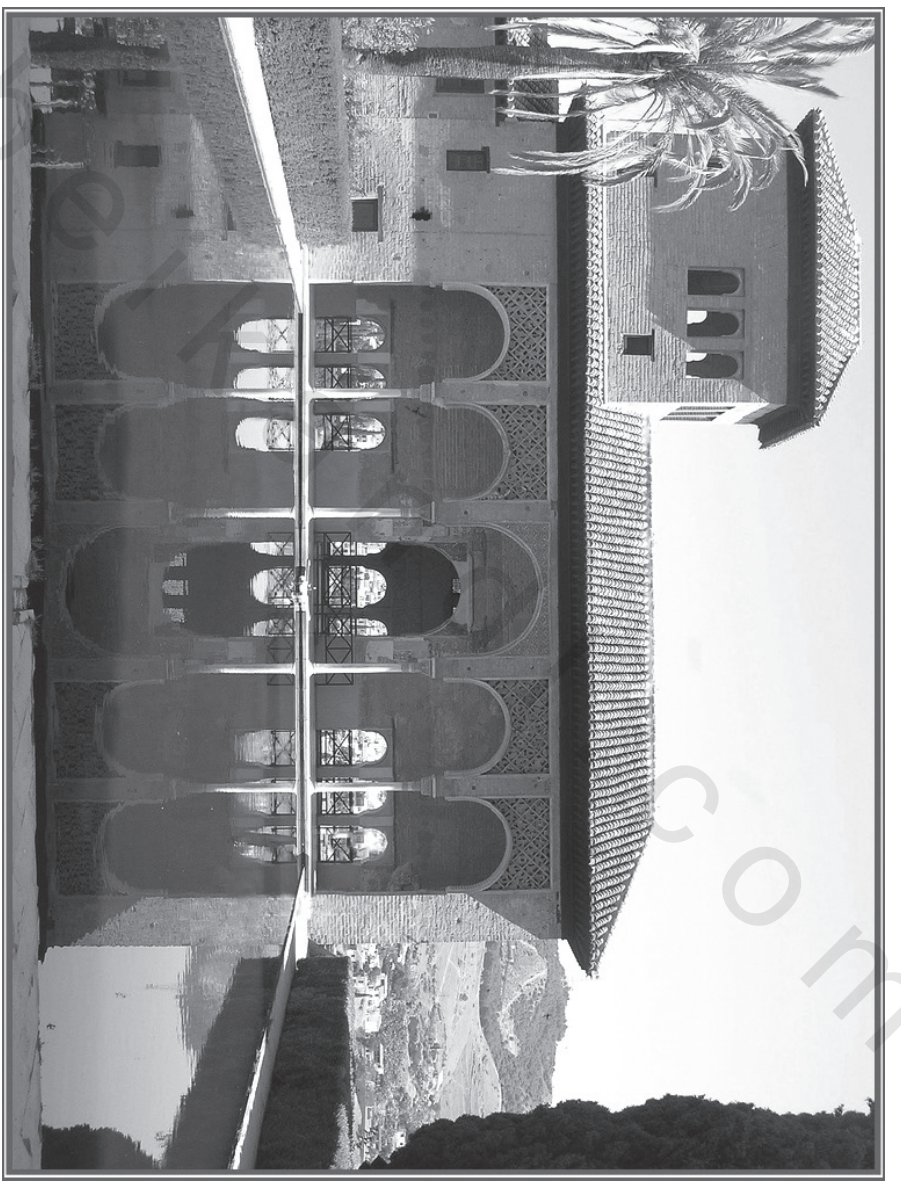

قصر الحمراء من الداخل

obeikan.com

obeikandl.com

تنازع السلطة

وبعد وفاته تولى الأمر بعده ابنه أبو عبدالله محمد الملقب بالمخلوع، وكان ضريراً لم يدم عهده طويلاً، وكان المتصرف في شؤون الدولة وزيره محمد اللخمي، ويبدو أنَّ الوضع أعاد لنا الذاكرة بهشام المؤيد وأمه صبح مع المنصور بن أبي عامر.

وسارت العلاقة بين المخلوع ويوسف أبو يعقوب المريني على أحسن حال، ثم ما لبث ابن الأحمر أن غير مساره واتجه إلى القشتاليين لمحالفتهم ضد المرينيين، ويبدو أن الوزير محمد اللخمي كان سيء السريرة، ميكافيلياً يبحث عن تحقيق الغاية، وربما تكون الغاية لشخصه وليس لمملكة غرناطة أو أمته الإسلامية.

غضب يوسف أبو يعقوب لهذه الخيانة، فأعدَّ جيشاً عزم على أن يقوده بنفسه فاغتاله أحد الخصيان قبل أن يبدأ تسيير الجيش فمات بغدر الخصي عام ٧٠٦ هـ، وكانت حروب بين ولديه أبو سالم وأبو ثابت انتهت بتولي أبي ثابت الحكم ووفاة أبي سالم، وحدثت نزاعات في المغرب وآل الأمر إلى السلطان أبي الربيع.

وفي الأندلس ثار الناس على المخلوع ووزيره اللخمي لسوء سيرتهم وسريرتهم، فقتلوا الوزير وأسروا المخلوع، وبقي أسيراً حتى مات، فتخلصت غرناطة من الوزير الماكر والحاكم الضعيف.

وتولى أمر غرناطة شاب في الثالثة والعشرين من عمره يقال له نصر بن محمد الفقيه وهو أخو المخلوع، وكان ملك قشتالة يراقب الوضع في المغرب والأندلس عن كثب، فسار بجيشه وتعاون معه ملك الأراجون، فاستطاع المسلمون ردهم عن المرية وبعض الحصون، لكنَّ المسلمين خسروا جبل طارق الذي كان نقطة الوصل بين المغرب والأندلس، وانشغل المرينيون بحروبهم الداخلية، كما أنهم سئموا مكائد وخيانات بني الأحمر فلم يعاودوا العبور إلا لماماً.

فاضطر نصر بن الأحمر أن يبرم صلحاً مع ملك قشتالة يدفع بموجبه الجزية في مأساة جديدة ليضع يديه في القيود بعد أن تحرر منها أسلافه.

obeikandl.com

ضـاق أهل غرناطة ذرعاً بما فعله نصر، فقامت الثورات هنا وهناك، وتقطعت لحمة مملكة غرناطة، وبقيت مدينة غرناطة في شغب حتى تم الاتفاق على أحد شباب بني نصر واسمه أبو الوليد إسماعيل وذلك عام ٧١٣ هـ.

انتهـز ملك قشـتالة وضـع غرناطة وعزم علـى الغزو، فجاء بجيش كبـير به عدد من الإنجليز والأورجوانيين، وكان الجيش الإسلامي يتكون معظمه من جنود مغاربة عاشوا في شظف الحياة ولم يتذوقوا ملذات البذخ السائدة في الأندلس، فانتصر الجيش الإسلامي وقتـل قائد الجيش القشـتالي، وتم تعليقه علـى باب غرناطة، فكان نصـراً مؤزراً عندما صدقت النوايا وخلص العمل.

والحقيقـة أنَّ الواقع القشـتالي قد سـاعد إسـماعيل على إحراز بعض الانتصـارات هنا وهناك، مع شـجاعته وإقدامه، وقد قُتِلَ من قبل ابن عمه محمد بن إسـماعيل غدراً لمزاحمته له على جارية تزهو بقسط كبير من الجمال.

وهكذا أصـبح التنافـس على الجواري يطيح برؤوس الحكام لـدى بني الأحمر لتكون مأسـاة من لون جديد، وعلينا أن نشـيد بحسن سلوكه ومكارم أخلاقه، فقد منع الخمور، وأزال المنكرات.

وخلفه ابنه الفتى أبو عبدالله محمد وعمره أحد عشر عاماً وذلك في عام ٧٢٥هـ، وقد غضب من وزيره فأمر بقتله عام ٧٢٩ هـ.

وكان شـجاعاً يطمح رد الاعتبار لدولته، فناشد سلطان المغرب مساعدته في استرداد جبل طارق والعفو عما سلف، فوافق وسار الجيشان، واستطاعا بعد معركة شرسة استعادة جبل طارق، غير أنَّ أيدي الغدر مازالت توهن الكيان المسلم، فقد تمالأ شيخ الغزاة عثمان ابـن أبي العلاء مع بعض الغزاة على إقصـاء قائد الجيش وعـين بدله ابنه أبا ثابت، وقد ضاق حاكم غرناطة أبو عبدالله محمد بتدخل شيوخ الغزاة المستمر في تدبير شؤون الملك، فأراد إقصاءهم وقد فطنوا لذلك فاغتالوه وهو في طريقه بعد تحقيق النصر.

وبعد وفاته تولى الأمر أخوه أبو الحجاج يوسف وهو في السادسة عشرة من عمره، وكان حازماً، فتخلص من أبناء بني العلاء شـيوخ الغزاة الذين غدروا بأخيه، وعهد بمشـيخة

الغزاة إلى يحيى بن عمر بن رحو، وهو من بني مرين، كما عهد بالحجابة إلى أبي النعيم رضوان الذي كان نصرانياً تم سبيه وهو صغير، فتربى في قصور بني الأحمر، قال عنه ابن الخطيب: «كان أصيل الرأي، رصين العقل، كثير التجمل، عظيم الصبر، قليل الخوف في الملمات، ثابت القدم في الأزمات، ميمون النقية، عزيز النفس، عالي الهمة، بادىء الحشمة، آية في العفة، مثلاً في النزاهة».

استمر القشتاليون في مهاجمة مملكة غرناطة، وكان الفونسو الحادي عشر حريصاً على نزعها من يد بني الأحمر، وقد أدرك أبو الحجاج يوسف عجزه عن مقارعة ألفونسو الحادي عشر، فاستصرخ السلطان أبا الحسن علي بن عثمان، سلطان المغرب، فسارع لنجدة ملك غرناطة، وعندما علم القشتاليون بقدوم الجيش المغربي، طلب الفونسو الحادي عشر من ملك أراجون في البرتغال المساعدة، فهب للنصرة وبارك ذلك البابا، وسار الجيش زاحفاً لرد جيش المسلمين القادم من المغرب، فكانت هزيمة كبيرة للمسلمين.

عزم السلطان على العبور بنفسه انتقاماً للهزيمة التي لحقت بجيشه، فسار بجيشه ولقيه جيش ابن الأحمر فسارا معاً، وزحف الجيش القشتالي مع الجيش الأرجواني نحو المعسكر الإسلامي، وقامت معركة انهزم فيها المسلمون، وتم الاستيلاء على المعسكر الإسلامي، وتم أسر كثير من أولاد وحرم سلطان المغرب، كما أنَّ حاكم غرناطة يوسف استطاع الهرب والعودة إلى غرناطة، فكانت هزيمة ساحقة للمسلمين وكان ذلك في عام ٧٤١ هـ، ولم ييأس سلطان المغرب من النصر، فعاود مقارعة القشتاليين في سبتة، فكانت معركة بحرية هُزم فيها المسلمون مرة أخرى.

وعندما أيقن ملك قشتالة ضعف المسلمين، عزم على انتزاع جبل طارق من أيديهم وسار بجيش كبير قاده بنفسه وحاصر جبل طارق حصاراً طويلاً، وكان به حامية مغربية قوية الشكيمة استطاعت الذود عنه، وكاد أن يسقط هذا الحصن المنيع، والممر المهم لولا رحمة الله بالمسلمين حيث أصيب الجيش القشتالي بمرض فتاك مات على أثره ملك قشتالة، فعاد الجيش القشتالي أدراجه دون تحقيق مآربه، وحفظ الله الحصن من عنده وكان ذلك في عام ٧٥١ هـ.

مرَّ على حاكم غرناطة بضعة أعوام سادها الهدوء، حتى كان يوم عيد الفطر عام ٧٥٥ هـ، فقد استطاع رجل مخبول كما قيل من الوصول إلى حاكم غرناطة يوسف فقتله غيلة، ولم يسطر لنا التاريخ بواعث ذلك الاغتيال، وكان عمره عند وفاته تسعة وثلاثين عاماً.

بعد وفاة حاكم غرناطة يوسف تولى ابنه محمد الملقب بالغني بالله حكم غرناطة بعد أبيه وكان صغير السن، وتولى زمام الأمر وزيره ووزير والده أبو النعيم رضوان، وسارت الأمور في بدايتها سيراً حسناً، ونشير إلى أنَّ لسان الدين ابن الخطيب، الشاعر والأديب المشهور وصاحب كتاب الإحاطة، كان من معاصري تلك الحقبة بل كان وزيراً للغني بالله، وبجانب لسان الدين كان ابن خلدون صاحب المقدمة والتاريخ المشهور كاتباً للدولة، ولذا فإن هذا العصر حظي بوجود هذين المفكرين.

ويمكننا القول: إنَّ الوباء الذي أصاب الجيش القشتالي ومات على أثره ملك قشتالة، وكذلك المنازعات الداخلية في قشتالة قد ساعدت على بقاء مملكة غرناطة في يد المسلمين، والمأساة الكبرى أنَّ هذه المنحة الكبيرة والعبرة الجليَّة لم ينتفع منها المسلمون ويعيدوا بناء أنفسهم بل زاد الأمر سوءاً لرغبتهم في الاستكانة والتبلد، وكأنهم ينتظرون مأساة أكبر تذهب بريحهم، ويزول من خلالها سلطانهم.

أبت مملكة غرناطة إلاَّ أن تسير سيرة غيرها من استلاب السلطة وتدخل النساء لتفوت فرصاً سانحة، فقد قام إسماعيل المعتقل في أحد أبراج القصر وهو أحد إخوة محمد حاكم غرناطة بتدبير الإطاحة بأخيه محمد الغني بالله الحاكم الجديد، وذلك من خلال أمِّه ذات الثروة والمال، والتي وضعتها في سبيل نيل مرامها بإطلاق ابنها واستيلائه على السلطة، فكان لها ما أرادت. فقد قامت ثورة في القصر تم بموجبها إطلاق إسماعيل من معتقله، والهجوم على الوزير أبي النعيم رضوان وقتله بين حرمه وولده، أما الحاكم محمد الغني بالله فقد كان في قصر آخر ابتناه لنفسه فاستطاع الخلاص، وبقي لسان الدين ابن الخطيب برهة من الزمن مع إسماعيل يصانعه، غير أنَّ الريبة فيه ظلت قائمة نظراً لعلاقته مع أخيه محمد الغني بالله الحاكم السابق فاعتقل، وقد سعى سلطان المغرب أبو سالم المريني لدى سلطان غرناطة الجديد إلى أن يجيز «للغني بالله» الانتقال

إلى المغرب وبرفقته لسان الدين ابن الخطيب. فسار محمد الغني بالله إلى المغرب وعاش في كنف السلطان أبي سالم ابن السلطان أبي الحسن في مدينة فاس، وهكذا أصبحت فاس تضم المفكرين ابن خلدون ولسان الدين ابن الخطيب.

وقد قام محمد الملقب بالغني بالله الحاكم السابق لغرناطة بالاتصال مع «بطره» ملك قشتالة، فلم يصغ إليه لانشغاله بحروبه الداخلية، كما حدث داخل القصر المريني حدث آخر، فقد قام وزير السلطان أبي سالم واسمه عمر بن عبدالله بقتل السلطان والاستئثار بالسلطة، فحاول محمد بن الأحمر الملقب بالغني بالله استرداد حكمه لغرناطة من خلال الوزير الجديد، فساعده قدر استطاعته وأخذ في التدبير من داخل القصر الغرناطي، فتم له ما أراد حيث قامت ثورة داخل القصر انتهت بمقتل إسماعيل فعبر الحاكم السابق محمد الغني بالله البحر ليعود إلى غرناطة بعد مقتل أخيه إسماعيل وليصبح حاكماً جديداً قديماً لغرناطة، أما قائد الثورة في القصر أبو سعيد فقد حاول الاستئثار بالسلطة غير أنه هرب عند قدوم حاكمها محمد الغني بالله ابن الأحمر، ولجأ إلى ملك قشتاله، كان ذلك في عام ٧٦٣ هـ.

وتولى لسان الدين بن الخطيب الوزارة لمحمد الغني بالله للمرة الثانية واستمر بها إلى أن كثر أعداؤه ومنافسوه فاتهم بالزندقة فخشي العاقبة فسار إلى السلطان عبدالعزيز المريني سلطان المغرب، فأكرمه وقربه ثم ما لبث أن توفي السلطان عبدالعزيز المريني وتولى ابنه الطفل شؤون المغرب، ثم تم إقصاؤه وتولى الأمر أحمد بن أبي سالم الذي كان على علاقة جيدة مع حاكم غرناطة محمد الغني بالله، فأخذ نجم لسان الدين بن الخطيب في الأفول واتهم بالزندقة وسجن ثم قتل في سجنه.

وفي غرناطة استمر حكم محمد الغني بالله إلى أن توفي عام ٧٩٣ هـ.

هكذا انتهت فترة عصيبة من القتل والغدر والخيانة لدى حكام وقادة بني الأحمر في وقت كانت البلاد أحوج ما تكون إليه رفعة ومنعة وتنظيماً، لتكون نواة لاسترداد البلاد الإسلامية وعواصمها الرائعة مثل طليطلة وقرطبة وإشبيلية.

بعـد وفاة محمد الغني بالله خلفه ولده يوسـف أبو الحجاج، وكان القائم بالأمر خالد مولى أبيه، فاستبد بالأمر وقتل ثلاثة من إخوة الحاكم الجديد وهم نصر ومحمد وسعد، ثم ما لبث حاكم غرناطة يوسـف أن قتل وزيره وأخذ في مراسـلة حاكم قشتالة للمهادنة، وأطلق عددا من فرسان النصارى لديه وأرسلهم معززين مكرمين.

وتوفي السلطان بعد حكم لم يدم سوى ثلاث سنوات.

وتـولى الأمر بعده ابنه محمد، وقـد بادر إلى مهادنة ملك قشـتالة، لكنها هدنة لم تدم حيث أغار القشتاليون على نواحي مملكة غرناطة وكثر الغزو القشتالي، فقام حاكم غرناطة محمد بالمبادرة وغزو بعض المناطق القشتالية، فمرض ومات وذلك في عام ٨١١ هـ.

وتـولى الأمر بعده أخوه يوسـف «الثالث» وحاول مهادنة النصـارى دون خضـوع فأبوا إلاَّ الحرب فقام يوسـف لمنازلتهم، لكن الجيش القشـتالي كان قوياً بما لا يسـمح ليوسف بالانتصـار، وفقدت مملكة غرناطة بعض الحصون، ثم وافق يوسف الثالث على المهادنة واشـترط فك الأسرى المسلمين، وقد وجد القشتاليون تصـميماً من المسلمين دفعهم إلى قبول المهادنة.

وطمع سـلطان المغرب في جبل طارق فأرسـل أخاه أبا سعيد عبدالله، فلما علم يوسف الثالث بذلك سـارع بإرسـال قوة اسـتطاعت أسـر أبي سـعيد عبدالله، ولم يصبه حاكم غرناطة بسـوء ويبـدو أنَّ أمراً ما قد دبر بليل، فقد جهزه حاكم غرناطة وأرسـله لانتزاع السلطة من يد أخيه فتم له الأمر في البلاط السلطاني المريني.

توفي حاكم غرناطة يوسف الثالث في عام ٨٢٠ هـ، وكان من أفضل حكام بني الأحمر، لم يخضـع للقشتاليين وإنما لجأ إلى هدنة كان الطرفان في حاجة إليها نظراً لأوضاعهما الداخلية، غير أنَّ الجانب القشتالي أخذ في بناء نفسه بعد الهدنة في حين استمر الجانب المسلم في التدهور.

بداية التدهور

بعد وفاة يوسف الثالث تولى ولده محمد الملقب بالأيسر حكم غرناطة، وكان سيء الخلق، مكروها من أبناء غرناطة، مترفعاً عنهم، وكان وزيره يوسف بن سراج حكيماً حاول تغطية مساوئ خلقه فلم يستطع.

غزا القشتاليون بعض الحصون الإسلامية، ونجحوا في ذلك فكانت ذريعة لقيام الثورة عليه وتولية ابن أخيه محمد بن محمد بن يوسف الثالث الملقب «بالزغير» ويبدو أنها تحريف لكلمة الصغير، وفرَّ الأيسر إلى تونس ومكث هناك مدة من الزمن، بينما لجأ وزيره يوسف ابن سراج ذو الأرومة العربية الطائية إلى ملك قشتالة طالباً النجدة وإعادة الأيسر، فلبا ملك قشتالة الدعوة وقام لنجدته من خلال استمالة بعض رجال «الزغير» بالمال والترغيب والترهيب، وفعلت الأسلحة الخفية فعلها، ووهن بعض جند «الزغير» ووجهاء قومه أمام إغرائها.

ونما الخبر إلى «الزغير»، فأرسل بعض جنده لمقاتلة الأيسر غير أنَّ كثيراً من جنده انضم إلى الأيسر ، وزحف الجمع إلى غرناطة ورأى الزغير انفضاض الجند من حوله، ومع هذا فقد أبى إلا المنازلة دفاعا عن ملكه. وهناك من يقول إنَّ جند الزغير سلموا المدينة للأيسر. أما الرواية الأخرى فإنها تذكر أنَّ الأيسر قبض على ابن أخيه الزغير وقطع رأسه وقبض على أولاده وأهله، وهناك قول آخر بأنه قبض عليه مع أخيه أبي الحسن علي بن يوسف وأودعه السجن. وبهذا خسر المسلمون ملكا صالحا بسبب الأحقاد والمنافسات والمطامع، بعد أن أمضى في الحكم عامين وبضعة أشهر.

تولى الأيسر الحكم وأعاد يوسف بن سراج إلى الوزارة، وبعث إلى ملك قشتالة طالبا تجديد الهدنة واستغل ملك قشتالة الفرصة فاشترط دفع جميع التكاليف لاستعادة عرش غرناطة، فرفض الأيسر، فأراد ملك قشتالة تحييد سلطان تونس أبي فارس الحفصي فأرسل له الهدايا النفيسة، كما أنَّه عمل مثل ذلك مع سلطان فاس عبدالحق بن عثمان المريني، وطلب منهما عدم التدخل في شؤون غرناطة، فلبَّيا له رغبته.

بعد أن انتهى ملك قشتالة من ترتيب بيته الداخلي بعد قلاقل حدثت هناك عاد لمحاربة الأيسر فانهزم الأيسر فعاث ملك قشتالة في بعض الحصون ثم عاد إلى قرطبة.

عاد الأيسر إلى غرناطة فوجد الأمر على غير ما يبتغي فقد انقسم الناس إلى شيع وتفرقت كلمتهم وذهبت ريحهم.

والتف خصوم الأيسر حول رجل يسمى يوسف بن المول، أمُّه ابنة السلطان محمد بن يوسف بن الغني بالله، ووالده كان وزيراً لدولة بني الأحمر، واتفق يوسف بن مول مع ملك قشتالة على الخضوع والخنوع والطاعة لملك قشتالة إذا ما ساعده على تولي غرناطة، فتم له ما أراد واستطاع دخول غرناطة بشروط قشتالية منها أن يحكم باسم ملك قشتالة وتحت طاعته، وأن يكون أحد خدمه وأن يعاونه بألف وخمسمائة فارس ضد المسلمين أو النصارى، وأن يدفع له جزية سنوية باهضة، وأن يحضر جلسات مجلس نواب القشتاليين اعترافاً بالتبعيه، فوافق على ذلك، ثم ما لبث أن مات لكبر سنه.

وقال صاحب كتاب دولة الإسلام في الأندلس: «ومن المدهش أن نجد تماثلا غريبا بين نصوص المعاهدة التي عقدها محمد بن الأحمر مؤسس مملكة غرناطة بالخضوع لفرناندو الثالث وبين عهد الخضوع الذي وقعه يوسف بن المول والذي قطعت به قشتالة أكبر خطوة في سبيل تحقيق أمنيتها القديمة. والواقع أن هذا العهد المؤلم كان أشنع ما انتهت إليه الخلافات الداخلية والحروب الأهلية في مملكة غرناطة في تلك الفترة الدقيقة من حياتها».

بعد وفاته أجمع الناس رد الأمر إلى الأيسر فتم ذلك، وكان الغزو القشتالي مستمراً غير أنه لم ينل مبتغاه من المسلمين فآثروا الهدوء إلى حين.

كان الأيسر مناضلا ضد أعدائه النصارى بعدما يئس من التزامهم بالهدنة المذلة التي كان يبرمها معهم، غير أنه كان سيء السياسة والتدبير داخل مملكته فكثر الأعداء وزاد المبغضون وتداعى المتربصون فاتجه جماعة من فرسانه إلى ملك قشتلة طالبين العون بقيادة يوسف بن أحمد حفيد السلطان يوسف الثاني وابن عم الأيسر والذي يسمى ابن إسماعيل. وهناك فئة تناصر الأمير محمد بن نصر بن محمد الغني بالله وهو المعروف بالأحنف، وكان الأحنف قد تمكن من الدخول إلى غرناطة سراً، وجمع ما يمكن جمعه من

الأنصار، وعندما سمحت له الفرصة، هجم على الحمراء والحصون المحيطة بها وقبض على الأيسر وذويه وزجَّ بهم في السجن، ونادى بنفسه ملكا على غرناطة، ولم يجتمع القوم على الأحنف وتولى كبرهم الوزير ابن عبدالبر زعيم بني سراج ذوي النفوذ في غرناطة، وكان مناصرا لابن إسماعيل، فصار ابن إسماعيل إلى إشبيلية مع مجموعة من فرسان النصارى أمدهم به ملك قشتالة واستطاع الاستلاء على غرناطة بضعة أشهر ثم ما لبث الأحنف أن جهز قوة كافية دحر بها ابن إسماعيل واسترد الحكم مرة أخرى.

ومرة أخرى يلعب سوء معاملة الرعية دوراً في عدم استقرار أحوال قرطبة، فقد كان الأحنف قاسيا ظلوما عنيفا أوغر عليه صدر سراة القوم وعامتهم، ويبدو أن القوم لجؤوا إلى ابن إسماعيل وأعادوه إلى الحكم مرة أخرى. وحاول ابن إسماعيل تجربة الصراع مع القشتاليين فأخذ في غزو بعض حصونهم مستغلا محبة أهل غرناطة له واجتماع كلمتهم عليه لكن ملك قشتالة كان أقوى عدداً وعدَّة وأكثر تنظيما، فكان يناجز فرسان الحصون الإسلامية دون هوادة ويقطع الشجر ويسبي النساء ويقتل الرجال ويحرق الزرع رغبة في المزيد من الضغط، وكانت قاصمة الظهر تلك المعركة التي حاز بها ملك قشتالة جبل طارق فقطع التواصل الأندلسي مع المغرب، تزامن ذلك مع شيخوخة دولة المرينية في المغرب ثم زوال سلطانهم على يد بني الوطّاس. وهكذا ساءت الأحوال الإسلامية في غرناطة والمغرب بسبب أبنائها.

وكانت المنافسات الداخلية في أوجها بين بني الأحمر من جهة والأسر الكبيرة من جهة أخرى مثل أسرة بني سراج، وبني الأضحى، وبني الثغري، وكذا بين الأسر نفسها ويبدو أن ابن إسماعيل عزم على إنهاء نفوذ بني سراج وكان لنساء البلاط أثر كبير في هذه المنافسات، فربما تضطرم المنافسات النسائية لتصل إلى القادة فتكون الإحن والمصائب التي تحل برزئها على العامة في غرناطة. لقد كان سلوكاً اجتماعياً خطيراً لا يبالي فيه ذوي النفوذ من الرمي بأمة إلى نهاية مأساوية في سبيل الارتماء في أحضان امرأة أرادت النيل من منافسة لها والغلبة عليها. فذهب الرجال والنساء والأرض والمال ولم يعد متنافسون ومتنافسات.

obeikandl.com

السقوط الأخيـر

قبل أن نسترسـل في حديثنا عن السـقوط علينا أن نشير إلى أن ملك قشتالة فرناندو قـد تـزوج ملكة أراجـون إيزابلا، واتحدت المملكتـان في مملكة قوية متحـدة، كما أنَّ أثر البابـا في الفترة الأخيرة أصـبح كبيراً نظـراً لكونه مرجعاً دينياً وسياسـياً مهماً تعود له الممالك المتصـارعة للإصـلاح، إضـافة إلى أنه يوفر المال والرجـال اللازمين للحملات النصـرانية من خلال ما يتبرع به الأفراد والممالك لنصـرة إخوانهم في الدين، كما ساد شيء من التغير النوعي في الكفاءة الإدارية والقدرة التنظيمية، في الوقت الذي كان العالم الإسلامي في المغرب والأندلس على النقيض من ذلك.

انتهـى أمر غرناطة إلى سـعد بن محمد بن يوسـف النصـري الذي تـوفي وكان أكبر أبنائه أبوالحسـن الملقب بالغالب بالله، وكان عمره ثلاثين عاماً، وكان الصـراع محتدماً بينه وبين أخيه أبي الحجاج يوسف وأخيه أبي عبدالله محمد المعروف «بالزغل» وقد توفي أبو الحجاج يوسـف، ونازع «الزغل» أخاه على الحكم فصـرفه عن حروب القشتاليين إلى أمد، وبعد تمرد أهل مالقة على أبي الحسن استدعوا أخاه «الزغل» وبهذا انقسمت مملكة غرناطة إلى قسمين كل قسم يتبع أحد الأخوين، وهذه بداية التفتت ما قبل السقوط.

وقد واصـل أبو الحسـن محاربة القشـتاليين، ثم ما لبث أن رضخ لشروطهم وقدم يد الطاعة وقبع غارقاً في ملذاته، وكان أبو الحسن قد تزوج بابنة عمه الأيسر واسمها عائشة التي أصبحت فيما بعد والدة أبي عبدالله آخر ملوك المسلمين في الأندلس.

فقد عاشت مع زوجها وأنجبت منه ولدين هما أبو عبدالله محمد وأبو الحجاج يوسف وكانت محبوبة لدى أبي الحسن، ولكن أبا الحسن استهوته فتاة اسمها «ثريا الرومية» بنت لأحد أكابر القشـتاليين أُخِذَت سبية واعتنقت الإسـلام، وكانت فائقة الحسن والجمال، والروعة والبهاء، فسلم لها أبو الحسن مقاليد قلبه وبعد أن أحبها تزوجها، فكانت الآمرة الناهية في القصر، وأنجبت من أبي الحسن ولدين هما سعد ونصر، وحاولت بكل وسيلة إبعاد أبي عبدالله وتولية أحد أبنائها، وواصـلت السـعي لدى أبي الحسن حتى استطاعت

أن تزج بعائشة الحرة وابنيها في مقصورة داخل السجن وتولي ابنها ولاية العهد، وأن يخلو لها الجو، وانقسم أصحاب النفوذ حول هذا التصرف الأرعن من حاكم غرناطة، فمنهم من جاهر برفضه سجن الحرة مع ولديها، ومنهم من مالأ الحاكم وانحاز تحت ظله، غير أنَّ تلك الأم العظيمة الشجاعة لم تهن ولم تستسلم، فقد عقدت العزم على الهرب والنضال لاسترداد ما تراه حقها وحق ابنها، فأخذت بقماش الفراش وربطته على هيئة حبل أنزلت أحد أبنائها بواسطته إلى الأسفل ثم أنزلت ابنها الآخر، كما أنها نزلت بواسطته بعد أن ربطته في أحد الأعمده لديها، وكانت قد أعدت فرسين لنقلهما خارج المدينة تحت جنح الليل فتم لها ما أرادت وتحررت من المعتقل، وسارت مع ولديها إلى وادي آشى وأعلنت الدعوة لابنها أبي عبدالله محمد، وكان أبو الحسن في أحد غزواته وبعد عودته وجد أنَّ أمر غرناطة قد تغير، فقد مال الناس إلى أبي عبدالله محمد لما لحق به من ظلم بسبب عشق هذا الشيخ لهذه الفتاة الجميلة «ثريا الرومية» وتركه لابنة عمه عائشة الحرة.

فرَّ أبو الحسن إلى مالقة حيث يوجد أخوه محمد بن سعد المعروف «بالزغل»، والزغل في العامية الأندلسية تعني البطل، وتربع أبو عبدالله محمد على كرسي الحكم بغرناطة، بينما بقي أبوه والياً على مالقة بصحبة أخيه محمد الزغل، وكان عمر أبي عبدالله آنذاك خمسة وعشرين عاماً.

وقد حاول القشتاليون غزو مالقة فحاصروها، لكن «الزغل» استطاع ردهم في معركة تسمى «الشرقية» أما أبو عبدالله فقد حاول محاكاة عمه فعزم أن يخوض معركة مع القشتاليين فسار إلى قرطبة محارباً فتم القبض عليه، ففرح به ملك قشتالة فأكرمه أيما إكرام وأبقاه لديه، ثم أطلق سراحه لسبب لم أجد له جواباً، وأبو عبدالله ضعيف الهمة واهن، وربما أنَّ ملك قشتالة وجد في صفاته ما يأمل من ورائها عودته إلى عرشه ومن ثم سهولة الانقضاض عليه وهو ما تم، ربما يكون ذلك !!! لا سيما أنَّ إطلاق سراحه لم يتم دون عهود ومواثيق تضمن في نهاية الأمر مد يد طاعته لفرناندو.

بعد فك أسر أبي عبدالله محمد، رام أخذ الحكم من عمه الزغل، فنشبت الحرب بينهما، فاستغل ملك قشتالة هذا الوضع، فسار واستولى على كثير من الحصون والقلاع،

وقد ظل «الزغل» يصارع بقوة وبسالة في مالقه ضد القشتاليين دون خضوع أو جنوح، بينما كان أبو عبدالله محمد ضعيفاً يرضخ للضغوط القشتالية.

وفجأة نجد تغيراً في موقف «الزغل» فبعد أن أدرك أنَّ الاستمرار في المقاومة مستحيل سار إلى ملك قشتالة وأبدى له طاعته وخضوعه، وبقي في مالقه تحت طاعة ملك قشتالة وشروطه، أما أبو عبدالله فقد أظلمت الدنيا في وجهه ورأى أنَّ النهاية قد أزفت وأن الفردوس الأندلسي في طريقه إلى النزول عن آخر حبة رمل من كبريائه، فانقلب ضعف أبي عبدالله محمد إلى قوة بخلاف عمه، واستبسل في الدفاع عن غرناطة بعد أن أحاط بها ملك قشتالة، وتم الحصار وانتهى بالاستسلام في عام ٨٩٦ هـ بعد أن حاول الاستنجاد ببني الوطاس وكانوا غير جديرين بالنجدة، وراسل حكام مصر فأعيتهم المشقة، وهكذا انتهى الفصل الأخير من مأساة الأندلس بقول عائشة الحرة والدة أبي عبدالله لابنها: «إبك مثل النساء على ملك لم تحفظه مثل الرجال».

وعاش بقية حياته في فاس حتى توفي عام ٩٤٠ هـ بعد أن أغلق الستار على الوجود الإسلامي في الأندلس وعمره نحو ثلاثين عاماً.

إنَّ المأساة الحقيقية في الأندلس تكمن في لذتين، لذَّة السلطة، ولذَّة الشهوة، ومنهما انبثق كل خطر داهم الأندلس، فلذة السلطة تجعل التضحية بالناس والأرض والمال مباحة في سبيل الإمساك بها، ولذة الشهوة تجعل الحاكم الأندلسي يضعف أمام الجواري، والزوجات، والأبناء، والشراب فتتم التضحية بحسن التدبير، وتولية الخبير، وحفظ بيت المال من التبذير.